أبداً... لن أراك

للكاتب الأمريكي: (رايّ براد بوري)

دقات خفيفة... رتيبة توالت على باب المطبخ وعندما فتحته السيدة «أوبرايان» رأت في نهاية الشرفة أفضل قاطنة لديها... السيدة «راميرز» وقد أحاط بها شرطيان... ووقفت المسكينة بينهما فبدت حبيسة... محتجزة ضئيلة الهيئة.

ـ سيدة «راميرز»... ياإلهي... مالأمر؟

هتفت «أوبرايان» ملتاعة!

وطفى الانفعال والألم والحيرة على الأخيرة... فما حارت جواباً! ما أسعفتها الكلمات إذ إن وقع الأمر كان شديداً.

وكانت المسكينة قد اكترت إحدى غرف العمارة التي تملكها السيدة «أوبريان» منذ عامين أو ينيف فما غادرتها منذ ذلك الحين... كانت قد وفدت ـ عبر حافلةٍ ـ من «مكسيكو سيتي» إلى «سان دييغو» وتوجهت بعد ذلك إلى «لوس آنجيليس» بحثاً عن لقمة العيش واهتدت إلى غرفة صغيرة نظيفة فرشت أرضيتها بالمشمع اللامع، فيما ازدانت جدرانها بالصور والمصابيح الرائعة في روض بهيج من الأزهار والرياحين الملونة التي يغص بها ورق الجدران، وكانت مالكة ذلك كله... السيدة «أوبرايان» حازمة في لين... لينة في حزم رقيقة... أنيقة فلا عجب أن أحبتها القاطنة المكسيكية المسكينة وكانت السيدة «راميرز» تعمل قبيل الحرب في أحد المصانع ولا زالت تحتفظ بذات المهنة التي درت عليها دخلاً كبيراً أودعت جلّه أحد المصارف، ومتعت نفسها بالقلة القليلة الباقية فزاد ذلك من إعجاب السيدة «أوبرايان» بها وقربها منها أكثر فأكثر.

وداخل المطبخ كانت الفطائر في الفرن على وشك النضج... لتخرج سمراء في لون بشرة السيدة «راميرز» وبخطوط كتلك التي تلوح في عينيها المجهدتين دوماً. وشعت رائحة الفطائر اللذيذة في أرجاء المطبخ الدافئ فمال الشرطيان برأسيهما ثملين بالعبق المغري. أما السيدة «راميرز» فاكتفت بالنظر إلى قدميها عازيةً السبب إليهما فيما وصلت إليه من متاعب.

ـ ماذا جرى سيدة «راميرز»؟ سألتها مالكة النُّزل.

ونظرت السيدة «راميرز» إلى طاولة الطعام الطويلة وقد تحلّق أولاد وبنات السيدة «أوبرايان» الخمسة حولها... تجوّلت عيناها فيما صف عليها من أطايب الطعام... مفرش نظيف اتكأت عليه آنية الفاكهة والحلوى، وأكواب براقة، إبريق ماء. وطفق الأولاد ينظرون إلى الشرطيين وأيديهم تمتد في هدوء إلى ما أمامهم...

ـ هنا أمضيت أروع سنيّ حياتي! ـ قالت السيدة «راميرز» فيما يشبه الحلم واستطردت بهدوء: لقد عشت هنا ثلاثين شهراً!... ونظرت إلى كفي السيدة «أوبرايان» الممتلئتين.

ـ أي أنك تقيمين هنا منذ ستة أشهر بصورة غير قانونية! قال أحد الشرطيين ـ وأوضح الأمر: إقامتها منتهية!

منذ وصول السيدة «راميرز» اشترت مذياعاً لغرفتها الصغيرة وكانت تستمتع برفع صوته حتى تتقاذف الجدران صداه ـ واشترت كذلك ساعة معصم كان مرآها ـ كلما رنت إليها ـ يبعث في ذاتها ألواناً من السعادة. وكانت إذا ما أرخى الليل سدوله تمشي الهوينى في شارع المدينة فتستعرض ما ازدانت به واجهات المحلات من ملابس وحلي، وتعمد أحياناً إلى شراء الرخيص منها.

وكانت تستقلّ «الترام» أحياناً لتظل تحدق في مسارات الليل مداراته وكهوفه البعيدة ورائحة الكهرباء تداعب خياشيمها راسمة خطوطاً لذكريات لا تنضب أو تتعب، وعيناها تطاردان لوحات الإعلانات المعلقة في الشوارع مستشعرة زلزلة العجلات. أسفل منها... والبيوت الصغيرة والفنادق تمرق أمام ناظريها بسرعة.

ولطالما ذهبت مع صويحباتها إلى دار «الأوبرا» وأمضت معهن في مطاعم المدينة أوقاتاً حلوة... عذبة لا تنسى.

وكانت المسكينة قد اشترت ـ إلى جانب ذلك كله سيارة تأخرت في دفع ثمنها فجاء البائع مغضباً وانطلق بها إلى المعرض ثانية.

ـ وها أنا قد أتيت ـ قالت السيدة «راميرز» ـ لأبلغك بأني سأترك الغرفة سيدة «أوبريان» لقد أتيت لأجمع أمتعتي وملابسي قبل أن أذهب معهما!

ـ ستعودين إلى المكسيك؟

ـ أجل! إلى «لاغوس» تحديداً وهي بلدة صغيرة شمال «مكسيكو سيتي»

ـ شد ما أنا آسفة سيدة «راميرز»!

ـ لقد أعددت متاعي! قالت السيدة «راميرز» وعيناها ترمشان بعصبية ويداها تتقدمانها في يأس وإحباط!.

ولم يضع الشرطيان الحديد في يديها! ما كان ثمة داعياً لذلك.

ـ إليك بالمفاتيح سيدة «أوبرايان» لقد أعددت حقيبتي!

ولمحت السيدة «أوبرايان» لأول وهلة حقيبة موضوعة في الشرفة باستكانةٍ خلفها.

وألقت السيدة «راميرز» نظرة وداع أخيرة على المطبخ الواسع والملاعق الفضية والصغار وهم يأكلون... والأرضية اللامعة، ثم نظرت إلى العمارة المجاورة لهم وطوابقها الثلاثة تعانق الفضاء في بهاء، ورمت ببصرها إلى الشرفات وسلالم النجاة، وعتبات البلكونات الخلفية وحبال الغسيل يميل بها النسيم يمنة ويسرة.

ـ لقد كنت من أفضل القاطنين هنا! قالت لها السيدة «أوبرايان».

ـ شكراً... شكراً سيدة «أوبرايان» ردّت بعينين مغمضتين وصوت هامس رقيق كدفق الأماني بخاطر الملتاع.

ووقفت السيدة «أوبرايان» ممسكة بالباب نصف مفتوح... ونبهها أحد أبنائها إلى أن أكلها قد برد لكنها هزت رأسها واستدارت إلى السيدة «راميرز» ثم أبحرت مع الذكريات!

استعادت في مخيلتها رجع ذكرى لأيام أمضتها في زيارة لبعض المدن المكسيكية الحدودية... تلك الأيام الحارّة، وحشرة صرارات الليل تئزّ بأصواتها السرمدية وقد زحف بعضها وسقط الآخر ميتاً... هشاً كأصابع السيجار الصغيرة في واجهات المحلات. رأت بعين ذاكرتها القنوات تحمل مياه النهر إلى الحقول... والطرق الترابية الموحلة وجذوع الأشجار المحروقة، وتذكرت المدن الهادئة والأطعمة الدسمة الحارة، والخيول المنهكة... تذكرت مرأى الأرانب البرية العطشى.

وعاد إليها مشهد الجبال الشاهقة والوديان المغبرة، وتلك الشواطئ التي تمتد إلى مئات الأميال في صمت لا يتخلله سوى تكسّر الأمواج على الرمال... حيث لا سيارات أو مباني... لا شيء ألبتة!.

ـ أنا آسفة... سيدة «راميرز» قالت مجدداً!.

ـ لاأريد أن أعود سيدة «أوبرايان» ـ قالت بضعف ـ أود أن أبقى هنا... أعشق هذا المكان! لقد عملت وكسبت المال وتحسنت صحتي كثيراً... أبدو بصحة جيدة أليس كذلك؟.

لاأريد أن أعود!

ـ شدما أنا آسفة سيدة «راميرز» تمنيت أن يكون بوسعي عمل شيء.

ـ سيدة «أوبرايان» صرخت السيدة «راميرز» فجأة والدموع تتشبث بأجفانها السفلى ثم مدت يدها فاحتضنت كف السيدة «أوبرايان» وهزتها بحرارة مبقيةً إياها بين كفيها ـ سيدة «أوبرايان» أبداً لن أراك... لن أراك أبداً!

وابتسم الشرطيان لمرأى ذلك لكن السيدة «راميرز» لم تلحظ ذلك... فتوقفا عن الابتسام فجأة.

ـ الوداع سيدة «أوبرايان» كنت دائماً طيبة معي... آه... الوداع! أبداً لن أراك!

وانتظر رجلا الأمن إلى أن حملت المسكينة حقيبتها ومضت وساقاها لاتكادان تحملانها. قبل أن يتبعها الشرطيان بعد أن أمالا قبعتيهما تحية للسيدة «أوبرايان». وظلت تنظر إليهم وهم يهبطون درجات الشرفة ثم أغلقت الباب في هدوء وعادت إلى كرسيها كيما تتم طعامها. سحبت كرسيها فجلست عليه وتناولت الشوكة والسكين لتقطع شريحة اللحم المشوي.

ـ أسرعي يا أمي... سوف يبرد! قال أحد أبنائها!

ووضعت قضمةً في فمها فظلت تلوكها بين أسنانها فترةً طويلة... وألقت على الباب الموصد نظرةً طويلة ثم وضعت الشوكة والسكين جانباً.

ـ ما الأمر...؟ مابك يا أمي؟ سألها أحد أبنائها!

ـ لقد تذكرت ـ قالت واضعة يدها على وجهها ـ بأني لن أرى السيدة «راميرز» ثانية أبداً ـ ...

❀❀❀

Obeikandi.com